

من يستفيد من التجارة الحرة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاب عن هذا السؤال كاتب أمريكي لا ينقصه المرح ولما الحكمة المعيشية. اسمه "أورورك"، وجوابه: يستفيد الجميع. يقول في كتابه (وعنوانه "كُلُّوا الأغنياء"): السبب في غنى بقعة من العالم وفقر أخرى ليس الذكاء؛ فلما يوجد على وجه الأرض أكثر غباوة من "هوليود" أغنى بقاع الأرض، وفي روسيا التي يعد فيها الشطرنج رياضة شعبية يعيش أكثر المواطنين في مستوى الفقر. وليس وفرة المواد الطبيعية، فإن أفريقيا الفقيرة تملك كنوز الذهب واليورانيوم والمنفط، بينما تقدم هولندا الغنية كل ذلك إضافة إلى أن نصف مساحتها مغطاة بمياه البحر، أو مثل هولندا ليس لسويسرا نصيب من الموارد الطبيعية ولما خفة الدم، وأغلب أوروبا كذلك، ولم تعد لأي منها مستعمرات تحميها الأساطيل السبب واضح لو فتح الناس أعينهم عليه: حرية التجارة، وتعني الإقرار بحق الفرد في امتلاك ثمره جهده والتصرف فيها بأي شكل يختاره دون تعد على حقوق الآخرين.

ولكن أكثر الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، ولما يقفون، ولما يعترفون بالحدود الفاصلة بين حقوقهم وحقوق غيرهم، فمنهم من يسرق من الممال الخاص أو العام، ومن يغتصب أرض جاره أو الاستمتاع بحليلته أو شيئاً من حقوقه، ومنهم من يخون أمانته في وظيفته أو وصايته على اليتيم أو القريب أو الولد أو الزوجة، ومنهم من يضمر الحقد والحسد لأخيه الغني ويظهر المطالبة بتوزيع الثروة. وقد رفض الاشتراكيون ودعاة المساواة الاقتصادية مبدأ حرية التجارة بحجة أنها لا تحقق العدل، وأنها السبب في وجود هوة سحيقة بين الأقلية الغنية وبين الأغلبية الفقيرة، وظنوا أن الطريق الصحيح لردم هذه الهوة أن تؤخذ أموال الأغنياء وتعطى الفقراء. ولكن التجربة أثبتت فشل هذه النظرية في الدول الاشتراكية الأصلية وفي الدول المقلدة لها؛ وكان الناتج في كل حال: اختناق العملية التجارية، وفقد حوافز العمل، بل فقد البضائع من الأسواق، لو تحقق الحلم بامتلاك الأكثرية لأموال الأقلية. وبهذا تم تأمين الفقر.

المصيبة هي الفقر نفسه وليس الفرق بين غني وفقير، وعكس هذه الحقيقة ولد مصائب أخرى لا تقل سوءاً: الحقد والحسد والمخصادم والماقتال والمظلم.

ومع أن هذا الرأي مبني على الفكر واستقراء التاريخ ونتائج الواقع الحاضر، فقد لفت المكاتب المانتباه إلى أن أهمّ الوصايا العشر في التوراة بعد النهي عن عبادة غير الله. النهي عن السرقة والاعتداء على الملكية الفردية وحسد الآخرين على ما يملكونه والطمع فيه.

والمسلم في غير حاجة إلى تحكيم الفكر أياً كان مصدره أو وصفه، ولما إلى تحكيم نصوص اختلط فيها الوجداني والفكر فلا يمكن التمييز فيها بين الظن واليقين، وبين يديه وحي الله في كتابه وسنة رسوله وهو ما تعبده الله به وحده، لا يحييه ولما يهديه غيره، ولما يقبل منه غيره:

(1) ذَكَرَ اللَّهُ فِيمَا حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْبَشَرِ بَعْدَ الْمَشْرِكِ بِاللَّهِ وَعَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَلَّيْتُكُمْ بِهِ لَعْنَكُمْ تَعْلُونَ* وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْثِ وَالْزَّكَاةَ وَالْقَسْطَ [الأنعام: 151-152]، وجاء بعد هذه الآية من سورة الأنعام: (وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ [الأنعام: 153]، وتكرر الأمر بترتيبه في سورة الإسراء.

(2) وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُولُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: 188].

(3) وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ عِبَادَهُ مِنَ الْبَشَرِ مُتَسَاوِينَ فِي خَلْقِهِمْ وَلَا أَخْلَاقِهِمْ وَلَا أَرْزَاقِهِمْ، فِي أَجْسَامِهِمْ وَلَا عَقُولِهِمْ، فِي تَدِينِهِمْ وَلَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَافْتِعَالَ الْمَسَاوَاةَ بَيْنَهُمْ - فِي الرِّزْقِ خَاصَّةً - مُحَاوَلَةً لِلْخُرُوجِ عَنِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مُصِيرَهَا الْبُورَارِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (أَدَمُ يَتَّقِي مَنْ بَيْنَ رِجْمَتَيْ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُنَّ مَعْشَرَ تَهُمَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [الزخرف: 32]، فَكَثْرَةُ الْمَالِ وَتَرَفُ الْعَيْشِ وَزِينَةُ الدُّنْيَا لَا تَصْلِحُ مَقْيَاسًا شَرْعِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا لِلْخَيْرِ وَالْمُفْضِلِ وَالسَّعَادَةِ: (وَلَوْلَا أَن يَكُونِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَفَجَعْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُوفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَّيَا يَصْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَّيَا يَتَكَبَّرُونَ [زخرف: 33-34]. وَعِلَاجُ الْمُفْضِلِ لَا يَتَحَقَّقُ بِنظَرِيَّةٍ خَيَالِيَّةٍ عَنِ تَوْزِيْعِ الثَّرْوَةِ، وَلَا ضَرُورَةٍ لِتَحْدِيدِ الْمَلِكِيَّةِ أَوْ تَقْيِيدِهَا بِغَيْرِ مَا شَرَعَ اللَّهُ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِسَعْيِ الْمُفْقِرِ لِكَسْبِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ وَطَلْبِ التَّوْفِيقِ وَالْمَبْرَكَةِ مِنَ اللَّهِ. وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المحصين عفا الله عنه. تعاوننا على البر والتقوى وتحذيرنا من الإثم والعدوان.